الحجاج في الخطاب القرآني:
سورة البقرة نموذجا

محمد الوزاني الشاهدي
محمد امحيندات
طالبان باحثان، تكوين الدكتوراة، اللغة، الأدب وتحليل الخطاب
جامعة سيدي محمد بن عبدالله، فاس، كلية متعددة التخصصات تازة
المغرب

ملخص

شكل النص القرآني حقلا معرفيا ساعد على تخصيب شتى أنواع العلوم مثل علم المعاني والبيان والبديع فصار نصا إعجازيا بامتياز لأنه تحدى فصاحة الشعراء وتأثير الخطباء ووجاهة البلغاء ومنطق الفلاسفة. إن الهدف من دراسة الحجاج في الخطاب القرآني هو إبراز القوة التأثيرية والإعجازية للقرآن الذي استطاع استمالة المتلقي وإقناعه بالحجة الدامغة واللغة الرفيعة والأسلوب العذب الرقراق والخطاب الثاقب على صدق النبوة ونبل الرسالة وسمو المنطق الرباني الذي لا تضاهيه أية بلاغة أو حجاج إنساني. سنتطرق من خلال هذه الدراسة إلى استنباط آليات الحجاج القرآني من خلال سورة البقرة، معتمدين منهجا تداوليا تحليليا، بدءاً بمقدمة عامة وإطار نظري وآخر تطبيقي وخاتمة جامعة تلخص أهم النتائج المتوصل إليها، فقد تم التطرق في المدخل الأول باختصار إلى فضل ومكانة الإقناع الحجاجي في النص القرآني واستراتيجيات الحجاج عند العرب والغرب. في حين خصصنا الجانب التطبيقي لاستخراج آليات الحجاج في سورة البقرة. أما المبحث الختامي فتناولنا فيه الحصيلة المتوصل إليها في ضوء دراستنا التحليلية.

الكلمات المفاتيح: الحجاج القرآني، التداولية، البلاغة، الآليات الحجاجية، الإعجاز، الخطاب.

Mots clés: argumentation coranique, pragmatique, rhétorique, mécanismes argumentatifs, iijaz, discours.

تقديم

استند أسلوب الحجاج القرآني على ركيزة أساسية تتمثل في مبدأ النظم المتماسك الذي تدعمه البراهين الحجاجية التي يذعن لها العمل البشري وتسلم بها الغريزة الإنسانية وتفرزها القيم والظواهر الكونية، فجاءت براهينه دامغة تدعو المتلقي إلى التدبر والتفكر في معانيها بغية الغوص في أعماقها والوصول إلى مقاصدها. لذلك، احتل النظم الحجاجي في القرآن الكريم مكانة بارزة وظف من خلالها مجموعة من الوسائل اللسانية والمفاهيم الحجاجية والصور البلاغية التي لا يتبدل الاحتجاج بها عبر العصور كما يؤكد ذلك الجاحظ: "وكيف خالف القرآن جميع الكلام الموزون والمنثور، وهو منثور غير مقفى على مخارج الأشعار والأسجاع، وكيف صار نظمه من أعظم البرهان وتأليفه من أكبر الحجج"[1].

فالإعجاز البياني له علاقة وطيدة بالحجاج القرآني الذي يرتكز على دعامة النظم الكلامي والإقناع المنطقي والقصد البلاغي عند المتكلم الذي يتوفر على ملكة رفيعة يضطلع بها إلى إنتاج خطاب مؤثر يتناغم ويتلازم ومقتضى الحال، ولا يخفى علينا قدر ومكانة هذا الحجاج، خاصة إذا كان نابعا عن رب العزة، فالمتلقي لا يمكنه أن يدرك كُنه هذا الحجاج ويفك شفرته الإقناعية إلا إذا كان ملما بالعناصر الآتية:

- الوسائل اللغوية: لأن العلاقات البلاغية الدالة في الحجاج القرآني تعتمد على مجموعة من الروابط والآليات الإقناعية والعوامل الحجاجية التي تعطي الحجاج في النص القرآني نبرة لغوية استثنائية لم يأتِ بها أي نص أدبي أو شعري وذلك راجع إلى الاتساق اللغوي والتناسب البلاغي الذي يمنح النص القرآني قوة حجاجية فريدة.
- الاطلاع على مفهوم الحجاج الغربي وعلاقته بالحجاج القرآني عبر الإحاطة بوضعيات الخطاب وأشكال القصد.
- فهم معاني أفعال اللغة وتشرب دلالاتها وفق سياق القصد واستراتيجيات الإقناع ودرجة تفاعل المتلقي.

سنتطرق في دراستنا هذه إلى الظاهرة الحجاجية والبلاغة الإقناعية في سورة البقرة انطلاقا من استشهادات ملائمة تتميز بها هذه السورة لأنها ضمت ثلاثة أنواع من الحوارات الإقناعية تتمثل في حوار الله مع الملائكة، وحوار الله مع الأنبياء (آدم، إبراهيم)، وحوار إبراهيم مع النمرود.

1- فضل ومكانة الإقناع الحجاجي في النص القرآني

تعد علاقة الحجاج بالنص القرآني علاقة متجذرة ووطيدة مثل علاقة الرضيع بأمه لأن الإقناع البلاغي إسلامي المنبت قرآني التربة حيث نما وترعرع في حقل القرآن الكريم، لذلك، أطلق أهل التخصص على البلاغة الخطاب السامي أو الراقي، وهي مجموعة من القواعد المنتظمة التي تؤطر الإنتاج الأدبي وتساعد على توجيهه، وقد أكد سعيد حسن هذا الطرح "هي نظام يتحقق في النص، تؤثر على القارئ بإقناعه، أو تؤثر على المتلقي في عملية الاتصال الأدبي"[2]. وقد لقي الحجاج دورا فعالا عبر العصور في التعريف بلغة الضاد وإبراز رونق تراكيبها وقوة ألفاظها وجمال أساليبها وبلاغة إعجازها، فكان له الفضل الوفير في فهم التراث اللغوي العربي الأصيل وتفسير النص القرآني الذي أعجز العرب والعجم وغيرهم من الإتيان بمثله، وقد أشار ابن خلدون في مقدمته إلى هذا الصنيع: "اعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي فهم الإعجاز من القرآن"[3].

ويتسم الحجاج القرآني ببعده المقامي الذي يستميل ذهن المخاطب ويسلب عقله ويجعله أسير الصورة البلاغية الكلامية حيث يمتزج ما هو لساني بما هو بلاغي وتتداخل الموضوعات البلاغية في أبنية الكلام من أجل إنتاج خطاب معقول يعتمد على العقل والمنطق، لذلك أصبح الحجاج منهجا واضحا واستراتيجية كلامية تنشأ على مبدإ الحوار ومد جسور التواصل والتفاهم، هذا ما دفع الجرجاني إلى توضيح هذه المزية الحجاجية مؤكدا بـ "أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلا، وأن المجاز أبداً أبلغ من الحقيقة، إلا أن ذلك وإن كان معلوما على الجملة فإنه لا تطمئن نفس العاقل في كل ما يُطلب العلم به حتى يبلغ فيه غايته، وحتى يغلغل الفكر إلى زواياه"[4].

2- القصدية في الحجاج القرآني

يرى اللغويون بأن القصد يكمن في الدلالة التي تساعد المتلقي على فهم المقصود واستيعاب المبتغى، أما المناطقة فيرون أنه يندرج في فهم المعنى بصفة مطلقة ولا شيء غير المعنى. ويتموقع عند أهل البلاغة في فصاحة المتكلم وبراعته البلاغية وملكته الحجاجية التي يضطلع بها إلى توليف وإنتاج كلام بليغ مؤثر يتطابق مع مقتضى الحال، وهذا هدف أسمى لن يحققه "إلا من أحاط بأساليب العرب خُبراَ وعرف سنن تخاطبهم في منافراتهم ومفاخراتهم، ومديحهم وهجائهم، وشكرهم واعتذارهم، ليلبس لكل حالة لبوسها، ولكل مقام مقال"[5].

ويعتمد مفهوم القصد على فهم المعاني القرآنية التي تفسر الأشياء حسب مدلولاتها المنطقية، وقد جنح مجموعة من العلماء والمفسرين لتوضيح طبيعة العلاقة القصدية التي تربط المتكلم ومغزى الكلام، يقول الطاهر بن عاشور في هذا الصدد: "فمراد الله من كتابه هو بيان تصاريف ما يرجع إلى حفظ مقاصد الدين، وقد أودع ذلك في ألفاظ القرآن التي خاطبنا بها خطابا بينا، وتعبدنا بمعرفة مرادها والاطلاع عليه"[6]. فالسبيل إلى إدراك المقصدية حسب بن عاشور هو التمعن والتفكر والتدبر في الألفاظ القرآنية وفك شفرة رموزها حسب العلاقة الترابطية بين القصد والمعنى التي تساهم في تحقيق القصدية التداولية المنبثقة من إنتاج الخطاب وتلقيه من طرف المستمع.

3- الحجاج في التراث البلاغي العربي

يصعب الفصل بين البلاغة والحجاج في التراث اللغوي البلاغي، كون البلاغة اتخذت من البداية منحيين: الأول خطاب إفهام وجمال، والثاني خطاب برهان وحجاج؛ يخاطب المنحى الأول لاوعي المتلقي لإمتاعه ويتجه الثاني لوعيه لإقناعه، ونتج عن ذلك اتجاهين: بلاغة الأسلوب وبلاغة الحجاج. لذلك، فالبلاغة والحجاج متعالقان ولا ينفكان، يؤكد هذا الجاحظ في تعريفه البيان قائلا: "البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحُجُب دون الضمير، حتى يفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى، فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[7] يتضح من خلال قول الجاحظ أن وظيفة الخطاب لا تنحصر في الإبلاغ فقط بل تمتد إلى للحجاج من أجل الإقناع، يتجلى هذا من مفهوم البيان الذي يشمل وظيفتين، تقوم الأولى على الإفهام عبر الاتصال بعناصر المقام وخصائصه، الثانية حجاجية وإقناعية تقوم على الفصاحة وقوة الحجة.

وهناك من البلاغيين من أكد على ضرورة المعرفة بالبلاغة لمعرفة إعجاز القرآن، كون الباحث عن إعجاز القرآن يحتاج له لأنه منخرط في الدفاع عنه، والدفاع يستدعي الحجاج، وهذا يبرز مقدار التفاعل بينهما، حيث لا يحصل إدراك الإعجاز في حالة ما لم يتم إدراك البلاغة والحجاج، يقول أبو الهلال العسكري في هذا الصدد: "اعلم علَّمك الله الخير، ودلَّكَ عليه، وقيضه لك، وجعلك من أهله، أن أحق العلوم بالتعلم، وأولاها بالتحفظ بعد المعرفة بالله جل ثناؤه، علم البلاغة ومعرفة الفصاحة، الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى"[8].

وتميز في المقابل تصور عبد القاهر الجرجاني البلاغي بطابعه الجمالي المرتكز على بلاغة الأسلوب، لما لها من قدرة رهيبة على استمالة العواطف واستقطاب الجوارح، وأيضا بالطاقة الحجاجية المستنبطة من النظم والأساليب البلاغية، يظهر هذا في معرض حديثه عن الكناية والاستعارة والتمثيل "فقد زال الشك وارتفع في أن طريق العلم بما يراد إثباته والخبر به في هذه الأجناس الثلاثة التي هي الكناية والاستعارة والتمثيل المعقول دون اللفظ، من حيث يكون القصد بالإثبات فيها إلى معنى ليس هو معنى اللفظ، ولكنه معنى يُستدل بمعنى اللفظ عليه ويستنبط منه"[9]. إن غاية هذه الأساليب البيانية في استعمالها استمالة المتلقي لإثبات معاني أخرى مترتبة عليها، فيكون المعنى الأول دليلا على المعنى المقصود المخفي، وهذا يضيف للبلاغة وظيفة الإقناع والإثبات إلى جانب الجمال والأسلوب؛ فإثبات معنى بآخر معناه أن أحدهما حجة على الآخر.

ورغم الطابع التخييلي الذي ساد في البلاغة مع حازم القرطاجني إلا أنه لا يمكن إنكار البعد الإقناعي في تناوله، فهو لم يقتصر في عنايته على الأسلوب والذوق والجمال فقط، بحيث أولى عناية بالغة لبلاغة الإقناع في قوله: "لما كان كل كلام يحتمل الصدق والكذب، وإما أن يراد

على جهة الإخبار والاقتصاص، وإما أن يرد من جهة الاحتجاج والاستدلال"[10]. يتبين من هذا القول اهتمام القرطاجني بالحجاج والاستدلال في نظريته البلاغية ولا يكتفي ببلاغة التخييل على عكس ما هو سائد.

نستخلص من كل ما سبق أن الحجاج في التراث العربي كان متصلا في جزء منه بكل القضايا والمباحث البلاغية كالنظم والبيان والأسلوب واللفظ والمعنى...إلخ. لكن لم تخصص له أبواب أو مؤلفات خاصة به، وإنما جاء الكلام عنه في معرض الحديث عن القضايا السالفة الذكر، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على وعي العلماء بهذا الاتصال الوثيق بين كل من الحجاج والبلاغة، اعتبارا لعدهم البليغ من كان أقدر على الحجاج، والمحاجج البارع هو المتمكن من البلاغة والفصاحة وجودة البيان، فالغاية من حسن السبك وجودة النسج وجمالية البيان لا تنحصر في البعد الجمالي الذي تضفيه على الخطاب، بل تتجاوزه للإقناع والحجاج والإبلاغ والإيصال، وهذا يعني أن الخطاب البلاغي يضم في ثناياه بعدين: بعد جمالي إمتاعي وبعد حجاجي إقناعي.

4- الحجاج في المفهوم الغربي

4-1- النشأة والأصول

ولدت بلاغة الحجاج في صقلية وتربت في مهد المحاكمات القضائية التي شهدتها المدينة بعد النزاع المسلح، فتم إرساء اللبنة الأولى لدعامة فن الخطابة، ثم نمت وترعرعت بفضل المجهودات السفسطائية التي كانت تتلاعب بالخطاب وتزخرف ألفاظه من أجل تضليل المتلقي والسيطرة عليه ذهنيا، لكن التعقيد الخطابي والتنظير الحجاجي لم يكتمل أو لم يستوي على سوقه إلا في حضن التحولات السياسية التي عرفتها أثينا بفضل انتشار مفهوم الدولة والديموقراطية والحرية، وهذا ما حذا بأرسطو إلى تأليف كتابه الشهير "الخطابة" نظرا لمكانتها السياسية والاجتماعية والحجاجية في المجتمع اليوناني، وقد ارتبط عنده المفهوم الخطابي بالمفهوم الجدلي حيث أولى للخطيب مكانة مرموقة ومهمة جليلة، فهو لن يخاطبنا "كطبيب ولا كمهندس ولا كعسكري ولا كرجل مال محترف، إنه يستعمل وسائل لا تنتمي لأية صناعة محددة. كذلك لن يستدل الجدلي كميتافيزيقي ولا كفزيائي ولا كمهندس، بل سيحاجج بواسطة مبادئ لا تخص أي علم محدد"[11]. وهكذا أضحى فن الخطابة عنده "صناعة مثلها مثل الجدل"[12] لكن الكاتب المغربي الحسين بنو هاشم يجزم بأن الجدل الأرسطي "هو حجاج ضد أفلاطون وإن لم يشر له أرسطو بالاسم"[13].

4-2- نهضة الحجاج في أوربا خلال القرن العشرين

استوحى الحجاج الغربي بأروبا فلسفته ونظرياته من الخطابة اليونانية والبلاغة العربية، وقد تحققت هذه النهضة الحجاجية على يد كل من بيرلمان وتولين في منتصف الخمسينيات من القرن العشرين رغم القواسم المشتركة بينهما، إلا أن تصورهما مختلف لأن الأول بنى نظريته لهدم العقلانية الديكارتية والثاني لإعادة النظر في النزعة الأرسطية وضوابطها. فتولين يعد هرما من الأهرامات الفلسفية والحجاجية بإنجلترا لأنه أعطى لهذا الموضوع عناية فائقة وأرسى نموذجا حجاجيا عقلانيا يهدف إلى الإقناع والتأثير، وقد اعتمد في كتابه الشهير "استعمالات الحجاج" The Uses of Argument على مشروع عقلاني لاصوري من أجل دحض فلسفة المنطق الصوري المتجاوز الذي ينبني على الاستنباط والاستقراء كأدوات حجاجية تقليدية، حيث رأى أنها لا تتناسب مع الممارسات الحجاجية اليومية[14].

لقد بنى تصوره الحجاجي معتمدا على ستة دعائم مقسمة إلى شقين: الشق الأول يحتوي على ثلاث دعامات هي: الادعاء والبيانات/الأسس والمبرر، واعتبر هذا الجزء عنصرا أساسيا يتحقق في جميع الحجج. أما الشق الثاني فيحتوي على الدعم والطعن و.....؟؟؟؟؟ واعتبره عنصرا ثانويا يتواجد في بعض الحجج وليس كلها.

أما بيرلمان الفيلسوف البلجيكي، فقد حذا حذو الجرجاني الذي يعطي الأولوية للمخاطب والتأثير في ملكته السمعية حتى يستطيع فك شفرة الرسالة، وقد اقترنت أعماله باسم تيتيكا، فأصبح مفهوم الحجاج يعني عندهما البلاغة الجديدة أو الخطابة الجديدة التي اعتقت هذا التصور

من النزعة الاستدلالية الصارمة التي تدفع المخاطب والمتلقي إلى الرضوخ والاستسلام للآخر لأن العملية الحجاجية ترتكز على مبدإ الحرية والتفاهم والتوافق بين العناصر المتحاورة، وهذ ما دفعهما إلى تعريف الحجاج بـ "دراسة تقنيات الخطاب التي من شأنها أن تؤدي بالعقول إلى التسليم بما يعرض عليها من فرضيات أو زيادة درجة التسليم"[15]. كما ميز بين الحجاج الإقناعي الذي يرمي إلى إقناع الخاصة والحجاج الإقتناعي argumentation convaincante الذي يسعى إلى إقناع ذوي الألباب، وهو ما يعرف بمعيار القبول أو الرفض وقد تعزز هذا التصور الحجاجي بمجموعة من المفاهيم البلاغية مثل الإسهاب والالتفات والتلميح والاستفهام وغيرها.

وقد أتاح هذا التطور الحجاجي الفرصة لعملاق الفلسفة الفرنسية ديكرو كي يصقل نظريته ويعمق أكثر الدرس الحجاجي الحديث بمعية صديقه أنسكومبر، وارتكز الإثنان على نظرية الأفعال اللغوية عند أوستين وسورل وطوراها وصاغا أنموذجهما الخاص مضيفين محورين أساسيين هما الاقتضاء والحجاج. وقد أكدا بأن هذا الأخير متأصل في اللغة ومرتبط ومتعلق بها كتعلق الأم برضيعها، حيث أقرا بأن وظيفة اللغة حجاجية بامتياز لكوننا "نتكلم عامة –ملاحظة عادية– بقصد التأثير".[16]

هكذا لم تعد اللغة مجرد أداة لغوية بل أصبحت هدفا أسمى وغاية نبيلة تروم التأثير في المتلقي، وقد وظفا مجموعة من المفاهيم كالاستنباط والبلاغة المدمجة والسلالم الحجاجية والقوانين المنطقية والحجاجية من أجل بلورة مشروعهما الحجاجي اللساني.

5– آليات الحجاج القرآني في سورة البقرة

يعد النص القرآني نصا حجاجيا وإقناعيا وبرهانيا بامتياز لأنه يحثنا على التدبر والتفكر العقلاني في منطقه السليم وحججه اللامتناهية من أجل الوصول إلى مرفأ اليقين والرقي إلى الدرجات الإيمانية العليا والتسليم والخضوع المطلق إلى الإرادة الربانية والمنهج الإلهي السليم. وقد تنوعت المضامين الحجاجية في المدونة القرآنية خاصة في سورة البقرة التي أبهرت وأعجزت المتلقي بكثافة آلياتها الحجاجية.

5-1- الحجاج الإلهي مع الملائكة

يقدم لنا النص القرآني هنا حجاجا فريدا من نوعه ومتميزا من حيث فحواه ومضمونه وزمكانه، فهو حجاج حواري نوراني سماوي متعال في الزمان والمكان، جمع بين الخالق وملائكته حول موضوع خلق آدم واستخلافه في الأرض، قال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون﴾[17]. سنتطرق للحجاج الوارد في هذه الآية من ثلاث زوايا: الأدوات اللغوية والآليات شبه المنطقية والأدوات البلاغية.

استهل الله عز وجل حواره مع الملائكة بظرف زمان "إذ" الذي يشير إلى زمن علوي غير معروف لدينا، يخبرنا فيه باستخلاف آدم في الأرض، وذلك عن قدرة وعلم أزلي، وامتزج هذا الحوار بفعل تقريري يتجلى في الخبر الطلبي المثبت بأداة التوكيد "إن" يطلع فيه الخالق مخلوقاته النورانية على مشروعه الاستخلافي لكي يدفعهم مباشرة إلى التصديق بأفضلية الجنس المعد لتعمير الأرض، وقد عزز حجاجه باسم الفاعل "جاعل" الذي يفيد القدرة الربانية على تدبير شؤون الكون بشكل منطقي.

وضع الخالق ثقته الكاملة في هذا المخلوق الجديد لكي يتبوأ مكانة الخليفة الذي يقوم بهذه المهمة الجسيمة على وجه الأرض، والخليفة هو من ينوب عن الآخر ويقوم مقامه، وجاءت على وزن "فعيل" أي فاعل الشيء والتاء تفيد المبالغة، لكن الملائكة الذين جبلوا على الطاعة والامتثال المطلق لله تساءلوا بصيغة استفهام مجازي "أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء"، حيث استفهموا حسب علمهم المحدود عن استخلاف هذا المخلوق الجديد الذي سوف يعيث في الأرض فسادا محاولين إدراك الحكمة من وجوده في حين يقتصر دورهم على العبادة وتقديس الخالق.

أما السمات شبه المنطقية التي تطغى على هذا النص القرآني فتكمن في السمات الدلالية والسلم الحجاجي، فقد عمدت الملائكة إلى توظيف سمات دلالية إيجابية مثل التسبيح والتقديس التي بوأتهم درجة تصنيفية عليا جعلتهم من المقربين إلى الله بفضل طاعتهم وتفانيهم في العبادة مستدلين بذلك من أجل ترجيح كفة العبادة والطاعة محاولين اقناع الخالق بإيجاد مخلوق مثلهم لا يفسد في الأرض ويعمد إلى إصلاحها، وموازاة مع ذلك استعملت في خطابها المتأدب سمات دلالية متناقضة مع الأخرى تتمثل في الفساد والسفك قصد عدم ترجيح كفة المخلوق الجديد وتدعيم موقفهم الحجاجي أمام العلي القدير، لكن الله رد عليهم مستدلا بسلم حجاجي متدرج قوي ومنطقي ثناهم عن جدلهم وأقنعهم بشرعية الخليفة القادر على إدارة شؤون الأرض وتعميرها بكل تفانٍ وإخلاص، وتتجلى هذه الآلية الموظفة في الحجج الربانية الآتية: علم غيب السماوات ←علم الأرض←علم ما تبدي وما تخفيه الملائكة. من هنا نستشف بأن المقصد الرباني يكمن في حجة العلم لأن الطاعة بدون علم لا تكفي، والله لا يُعبد بجهل، وتتجلى قوة البرهان الإلهي بالحفاظ على تيمة العلم في الآية (أعلم، لا تعلمون، علم، لا علم لنا، علمتنا، العليم) من إعطاء قيمة لهذه المزية وإبراز مكانتها العلية لدى الجميع.

ويتكون الجانب البلاغي من شقين: المقابلة والسجع، فالشق الأولى يتجلى في حجاج الملائكة بقولهم: "قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك"، فنرى هنا توظيف هذه الآلية الجمالية قصد نسج خطاب حجاجي عقلاني مؤدب مع الله يتلاءم وسياق الكلام ومقتضى الحال، فانتقت الملائكة من الألفاظ ما يفي بهدفها ويعزز غايتها الإقناعية (يفسد/نقدس) حيث قابلت صفات محمودة بأخرى منبوذة. أما المحسن البديعي فيظهر في قوله تعالى: العليم/الحكيم، فالآية الكريمة تحتوي على سجع متوازي يعكس استقامة واعتدال الكلام الرباني بشكل موزون ومتناغم يهدف إلى استمالة السامع وجذبه وإقناعه، يكمن هذا التناغم الجمالي في توافق الكلمتين في الطول والوزن، وهكذا يمكننا أن نستنتج بأنه لا يمكننا دراسة البنية النصية أو الأسلوبية باستقلال عن مقاصدها الحجاجية.

5-2- الحجاج الإلهي مع إبراهيم الخليل

اختلفت كتب التفسير حول السياقات التي دفعت إبراهيم ليطلب من رب العزة ليريه كيفية إحياء الموتى، إلا أن ما يسترعي انتباهنا هو مقصدية الطلب والسؤال الذي لم يأتِ من قبيل الظن أو الشك، وإنما جاء على سبيل المعاينة وزيادة اليقين والتقرب إلى الله من خلال قوله تعالى: ﴿وإذ قال إبراهيم رب أرني كيف تحي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ثم اجعل على كل جبل منهن جزءاً ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم﴾[18].

ابتدأت الآية بـ "إذ" الظرفية التي تفيد زمانا غير معلوم لدينا وخبر طلبي (إذ قال إبراهيم) يشير إلى استفسار يطبعه التأدب والخضوع إلى عظمة الله (رب أرني كيف تحي الموتى) حيث إن الاستفهام بـ "كيف" يعلمنا باستعلام من عبد ضعيف عن قدرة إلهية متقررة في الكون، فالسؤال هنا يقصد به الاستخبار عن الكيفية وليس عن لب قضية الإحياء طمعا في إقناع الخالق بهذا التوسل، يؤكد ذلك تقديم الإحياء على الموت في هذا السياق من أجل تدعيم موقفه الحجاجي وإبراز الغرض الأول من الطلب. لكن الله عز وجل المطلع على نفسية رسوله لم يصدر منه عتاب أو غضب كونه يعلم علم اليقين أن السؤال لم يرد من قبيل الريبة والمظنة، بل من قبيل الثبات وزيادة الإدراك لأن المشاهدة والمعاينة أبلغ وأوقع في النفس من الاستدلال. فرد عليه القدير باستفهام تعجبي تصديقي بواسطة الهمزة المقرونة باللام النافية (أولم تؤمن) لأن الغرض من هذا الاستفهام هو التصديق وإثبات نسبة درجة الإيمان العليا عند رسوله وإقناع متلقي وحي القرآن بأن إيمان الأنبياء بالله يزيد ولا ينقص، من هنا كانت الإجابة الربانية لطلب رسوله وأمره بأخذ أربعة طيور وتقطيعها وتفريق أجزائها على الجبال ثم دعوتها كي تسعى مفعمة بالحياة، ففعل الأمر اقترن بحرف عطف هو حرف الفاء وتعرف عند النحويين بفاء الفصيحة لأنها تفصح عن شيء مقدر في العلم الإلهي ثم وصل صيغة الأمر بأداة الوصل (ثم...ثم) التي تفيد الترتيب بشكل دقيق حتى يتمكن الرسول من المعاينة الدقيقة والطمأنينة القلبية والسكينة الروحية، فالله تعالى أراد إقناع المؤمنين بأن عملية البعث ليست عملية عبثية وإنما عمل دقيق يخضع لترتيب إلهي وفق السنن الكونية، واختتم قوله بجملة فعلية معطوفة بواو الوصل ومؤكدة بأن (واعلم أن الله عزيز حكيم) يطلعنا فيه على صفتين من صفاته واسمين من أسمائه الحسنى، فقد قدم العزيز على الحكيم، لأن العزيز هو الجبار والقاهر فوق عباده هو الذي لا يقهره الدهر ولا تغلبه الدنيا ولا تمتنع عنه الأشياء مهما عظمت نظرا لقدرته

الواسعة وعظمته وجبروته، فهو الوحيد الذي لا يستعصي عليه الموت والنشور، أما الحكيم فهو الذي يضع الشيء في الموضع المعد له وفق منهج منتظم وترتيب محكم. فالله يؤكد لرسوله من خلال هذا الترتيب قدرته على إحياء الموتى، والقصد من هذا التأكيد اقتناع المتلقي للاستسلام لقضاء الله.

كما تضم الآية ثلاث آليات أخرى (بلى، لكن، وتوارد الأدلة اليقينية)؛ حيث تفيد "بلى" إبطال النفي الاستفهامي السابق، حيث لو أجاب إبراهيم بنعم لثبت العكس، فهذه الأداة تشير للإيجاب لما بعد النفي جاءت كحرف جواب وقع بعد النفي من أجل تأكيد الإثبات، فإبراهيم أراد أن يقنع ربه بأن الإيمان موجود في قلبه ومتغلغل في كيانه من دون مكابرة أو شك محاولا إعطاءه الحجة التي دفعته لطلب المعاينة (ولكن ليطمئن قلبي)، فتوظيف حرف الاستدراك مقرون بنفي قول ما قبله ومؤكد لما بعده ويثبت ويقنع رب العزة أن قصده هو تعزيز يقينه في الله وتعميق العلم بالعيان لأن المشاهدة تفيد من الإدراك والتيقن والتحقق ما لا يفيده الاستدلال. أما فيما يخص توارد الأدلة اليقينية، فالنص القرآني يزخر بشتى الأدلة التي حفزت إبراهيم وزادته طاقة إيمانية وشحنة ودفعته للانخراط في المشروع الحجاجي الرباني المؤكد بأن الله وحده قادر على بعث من في القبور، ونورد الشواهد القرآنية التي تدل على ذلك (خذ أربعة من الطير، صرهن إليك، اجعل على كل جبل منهن جزءا، ادعهن يأتينك سعيا)، إنها تجربة علمية عاينها الخليل في مختبر رباني، وذاق حلاوتها وتشرب صدقيتها فسما إلى الدرجات العليا.

جاء القرآن الكريم بأسلوب إعجازي وبياني لا نظير له في سياق تاريخي كان العرب يعتبرون أنفسهم مالكي اللغة وصناعها، فجاء الأسلوب القرآني إعجازيا تصعب مجاراته، وحمل على التفكر والتدبر وإعمال العقل ومقارعة الحجة والاقتناع بالدليل وليس جبرا، وهذا أبرز أن الخطاب الحجاجي شكل أحد الوسائل المهمة التي استخدمها القرآن الكريم في الإقناع، والتي تحتاج بالضرورة لدراسات شتى للكشف عن مغاليقها وجوانبها المختلفة. وفي هذا السياق تضم سورة البقرة أساليب حجاجية متعددة غايتها الإذعان لله عز وجل ولشريعته باقتناع وحب ويقين.

3-5- حجاج إبراهيم مع النمرود

يتجلى هذا الحجاج في قوله تعالى: ﴿ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه أن أتاه الله الملك إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأتِ بها من المغرب فبُهِتَ الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين﴾[19]. تأتي هذه الآية في سياق مخاطبة الله عز وجل رسوله محمد ﷺ في روايته لقصة إبراهيم عليه السلام مع النمرود الملك الذي تجبر في الأرض واعتبر نفسه إلهاً، فجاءه إبراهيم وحاججه إذ قدم له معجزة من معجزات الله وهي القدرة على الإحياء والإماتة، بعدها تلاعب النمرود بالحجة في رده، فجاءه إبراهيم بحجة أقوى من الأولى لإفحامه كدليل في الآية على غلبة إبراهيم عليه السلام.

إذا أردنا تحليل هذه الآية وفق آليات الحجاج فسننطلق من العديد من المؤشرات اللغوية وشبه المنطقية والبلاغية التي تبدي قوة الحجاج القرآني الرباني، فمن قراءة الآية الكريمة نرصد العديد من الأفعال اللغوية المندرجة في إطار الأدوات اللغوية باعتبارها آلية من الآليات الحجاجية، تتجلى أولا في الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي ليفيد التعجيب في قوه عز وجل مخاطبا رسوله ﷺ: "ألم تر إلى الذي حاج إبراهيم في ربه"، وأيضا أسلوب الأمر الذي يفيد التعجيز في قوله تعالى: "فأتِ بها من المغرب" التي وردت في سياق إعجاز النمرود. كما ضمت الآية آليات شبه منطقية تجلت في درجات التوكيد كحضور الخبر الطلبي في قوله تعالى: "إن الله يأتي بالشمس من المشرق" بالإضافة لقوله جل ثناؤه: "أنْ أتاه الله الملك"، ورد في الآية الأولى الخبر الطلبي مؤكدا بمؤكد واحد هو "إن" وفي الآية الثانية بحرف زائد "أنْ". كما شملت الآية أساليب بلاغية كالطباق: يحيي/يميت، المشرق/المغرب.

تحول الحجاج في الآية الكريمة إلى مناظرة تستوفي شروطها، كونها مطروحة بين جانبين كل واحد يدافع عن حجته لينتهي الأمر لصالح أحد الجانبين، والدعوى المطروحة هنا: من الإله هل هو رب إبراهيم أم الملك النمرود. بدأ إبراهيم عليه السلام بحجته التي اختار فيها معجزة من معجزات الله عز وجل التي لا يشكك فيها أحد وهي الإحياء والإماتة "ربي الذي يحيي ويميت"، وانتقل الدور في المناظرة للطرف الآخر الذي هو النمرود الذي رد بالقدرة على الإحياء والإماتة وهي مغالطة حجاجية قام فيها النمرود بالتحايل والإيهام، بمعنى أنا أستطيع أن أحيي إذا

تراجعت عن قتل أحد كنت أريد قتله، بذلك أكون قد أحييته، وأستطيع أن أقتل أي أحد، وبذلك أكون قد أمته، من خلال هذه المغالطة الحجاجية فقد تحايل النمرود وتجاهل المفهوم الحقيقي للموت والحياة، مما جعل إبراهيم عليه السلام ينطلق لحجة أخرى ويترك تفسير هذه الحجة ولو أنه كان قادرا على تفسير المعنى المراد بالإماتة والإحياء لكنه تجاوز المجادلة لحجة أخرى جديدة "فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب" وبحجته هذه يكون قد أفحم خصمه ولم يترك له مجالا للرد على الحجة ولو بمغالطة حجاجية نظرا لكون هذه الحجة أقوى من الأولى ليكون الرد مستحيلا من النمرود ومنه كان قوله تعالى: "فبهت الذي كفر والله لا يهدي القوم الظالمين"، لينهي بذلك إبراهيم عليه السلام المناظرة لصالحه. ويظهر من خلال هذه الآية وفي سياق المناظرة أنها غنية بالآليات الحجاجية المتنوعة الدالة على وجود حجاج قرآني، من جهة. كما يجعنا نؤكد أن هذه الأساليب لا يتم استخدامها لغرض جمالي فقط، بقدر ما تسهم بكل كبير في تأكيد وتقوية الحجاج، من جهة ثانية.

5-4- حجاج شمويل مع بني إسرائيل حول الملك طالوت

يتحدد الحجاج ما بين النبي شمويل وبني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا قالوا أنَّى يكون له الملك علينا ونحن أحق منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم﴾[20] جاءت هذه الآية في سياق حوار نبي الله شمويل وبني إسرائيل حول بعث الله عز وجل طالوت ملكا لهم استجابة لطلبهم، واعتراض بني إسرائيل على ملك طالوت كونه من سبط بنيامين الذي لا ملك لهم ولا نبوة، ولأنه لم يؤت المال والجاه كونه كان دباغا، في حين هم من سبط يهوذا المعروفين بالنبوة، ليأتي رد النبي شمويل عن سبب تفضيل طالوت، كون الله عز وجل زاده بسطة في العلم والجسم أي القوة والحكمة، خصوصا وأنه كان يقصد بالملك الإمرة على الجيش حسب تفسير ابن كثير.

تضم الآية الكريمة حجاجا واضحا تتوزع آلياته لثلاثة أصناف: أدوات لغوية وآليات شبه منطقية وآليات بلاغية؛ فمن درجات التوكيد الواردة في الآية يمكن أن نحدد الخبر الإنكاري المؤكد بمؤكدين اثنين "إن" و"قد" في قوله تعالى: "إن الله قد بعث لكم طالوت ملكا"، والخبر الطلبي المؤكد بمؤكد واحد "إن" في قوله جل جلاله: "إن الله اصطفاه"، كما تضم الآية الكريمة أفعالا لغوية توزعت بين الاستفهام الذي خرج من معناه الحقيقي إلى معناه المجازي ليفيد التعجب في الآية الكريمة: "أنى يكون له الملك علينا"، والنفي في: "لم يؤت سعة من المال"، واحتوت الآية السجع: العلم/الجسم، والتكرار: الملك/ملكه.

انطلاقا من الآليات الحجاجية الواردة في الآية ، وبالإضافة لدورها البارز في جمالية الأسلوب، نجدها قد أدت دورا حجاجيا وإقناعيا، فبعد أن أراد بنو إسرائيل ملكا لهم لبى الله عز وجل طلبهم بإخبارهم على لسان نبيه شمويل عليه السلام ببعث طالوت ملكا لهم مؤكدا ذلك بخبر إنكاري يحد من إنكارهم في درجة من درجات التوكيد للإعلان عن حجاج قوي من خلال الإخبار، فجاء الرد من بني إسرائيل بفعل لغوي متجلي في الاستفهام المجازي الذي يفيد التعجب لإفحام الحجة السابقة وإتباعها بحجة بآلية أخرى تتحدد في النفي اعتبارا لكونهم يعتقدون أنفسهم أحق بالملك والإمرة على الجيش لأنهم أهل مال وخلافة ونفوذ وهو لم يؤتَ كل هذا، لتأتي الحجة المضادة مباشرة من النبي شمويل أولا لتصحيح مغالطتهم، وثانيا لتقديم حجج إضافية تؤكد أحقية طالوت بالملك، أولا باختياره واصطفائه من الله عز وجل وهو أعلم بمن هو أجدر بالملك، وتأتي الحجة الموالية لتأكيد كل الحجج السابقة، كون الله عز وجل بسط لطالوت العلم والحكمة والقوة. تتدرج هذه الحجج وفق تدرج شبه منطقي يمكن تحديده في سلم حجاجي ينبني وفق التراتبية التالية:

العلم←الجسم←اصطفاء الله عز وجل= النتيجة: أحقية طالوت بالملك.

يتدرج السلم الحجاجي أعلاه في الحجج من العلم والحكمة إلى القوة الجسمانية إلى اصطفاء الله عز وجل لطالوت ملكا، فهو بالعلم والعقل والحكمة قادر على التفكير بحكمة وعقلانية، وبالجسم قوي وقادر على المواجهة والدفاع عن قومه، وباصطفاء الله عز وجل حكمة أكبر هو أدرى بها. كل هذا يوصلنا لنتيجة حتمية تتحدد في أحقية طالوت بالملك.

لذلك، يعد القرآن مدرسة حجاجية متميزة لا يشق لها غبار لأنها حوت جميع أشكال الحجاج وقدمته للمتلقي في قالب لغوي بلاغي وجمالي لا نظير له على الإطلاق.

خاتمة

انطلاقا مما سبق نستنتج أن النص القرآني زاخر بآليات حجاجية متنوعة تتوزع بين ما هو لغوي وشبه منطقي وبلاغي؛ أما الشق الأول فقد جاء متغلغلا ومتجذرا في المدونة القرآنية، حيث أسهمت جل الوسائل الموظفة في تعميق الأسلوب الحجاجي وترسيخ أسسه الإقناعية، بينما شكل الشق الثاني مرتعا خصبا ساعد في إثراء الحقل الحجاجي من خلال السلم الحجاجي والسمات الدلالية...إلخ. أما الشق الثالث فقد رصد أهم الآليات البلاغية التي بينت البعد الجمالي والإقناعي. كما نستخلص أن هذه الآليات الثلاثة تتعالق وتتكامل فيما بينها، حيث لا يستقيم ذكر إحداها بمعزل عن الأخرى.

وقد تم تتويج هذا العمل بدراسة تطبيقية تداولية تحليلية على بعض آيات سورة البقرة، تناولنا فيها الحجاج الرباني مع الملائكة وإبراهيم عليه السلام، وحجاج الأنبياء مع بني البشر؛ ففي الحجاج الرباني مع مخلوقاته النورانية تطرقنا إلى حجاج علوي سماوي من نوع آخر يظهر لنا قوة الحجاج الإلهي الذي أقنع ملائكته بأن الاستخلاف في الأرض يعتمد على ترجيح كفة العلم. هذا من جهة، ومن جهة ثانية فقد اعتمد الحجاج الإلهي مع نبيه إبراهيم على الإقناع بواسطة المشاهدة العينية عوضا عن المشاهدة القلبية، لأن المعاينة أبلغ في النفس من الاستدلال. أما حجاج إبراهيم الخليل مع النمرود فقد اكتسى بعدا جدليا انبنى على المناظرة وتبكيت المغالطة الحجاجية، في حين تميز حجاج النبي شمويل مع بني إسرائيل بمنطق التدرج في الإقناع. وقد توصلنا في الأخير للنتائج التالية:

- تأصل الحجاج في النص القرآني، إذ لا تكاد تخلو جملة أو آية من الحجاج، لأن هدف القرآن الأسمى هو الإقناع والحث على التدبر والتفكر وإعمال العقل.
- تعالق وتكامل وترابط الآليات الحجاجية الموظفة في النص القرآني، حيث لا يمكننا تصور آلية حجاجية من دون استحضار أخرى.
- لا يمكن تناول البنية اللغوية بالدراسة بمعزل عن البنية البلاغية والحجاجية.

الهوامش:

[1] أبو عمرو، الجاحظ، البيان والتبيين، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، 1960، ج1، ص. 393.

[2] سعيد حسن بحيري، علم لغة النص: المفاهيم والاتجاهات، الشركة العالمية للطباعة والنشر لونجمان، 1997، ص. 22.

[3] عبد الرحمن بن خلدون، مقدمة ابن خلدون، دار الفجر للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، 2003، ص. 521.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: السيد محمد رشيد رضا، دار المعرفة، بيروت، 1981، ص. 55.

[5] أحمد الهاشمي، جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع، ضبط وتحقيق: يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 1999، ص. 42.

[6] الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، دار إحياء التراث العربي، 2000، ج1، ص. 39.

[7] أبو عثمان عمرو، الجاحظ، البيان والتبيين، ج1، ص. 82.

[8] أبو الهلال، العسكري، الصناعتين، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبي الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، ط1، بيروت، 2006، ص.2.

[9] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص. 441- 442.

[10] حازم القرطاجني، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس، 1966، ص. 63.

[11] Thurot (Charles), Etudes sur Aristote, Politique, dialectique, rhétorique, Durant Libraire Editeur, Paris, 1980, p. 244.

[12] الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج: الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، 2014، ص. 183.

[13] المرجع نفسه.

[14] Toulmin (Stephen), The Uses of Argument, Cambridge University Press, p. 2003.

[15] Perlman Chaïm, Olbreschts-Tyteca Lucie, Traité de l'argumentation ; La nouvelle rhétirique, 2ème ed. de l'institut de sociologie de l'Université libre, Bruxelles, 1970, p: 5.

[16] Jean-claude (Anscombre) et Ducrot (Oswald), L'argumentation dans la langue, 3ème éd. Mardage, Bruxelles, Beljique, 1997, p : 7.

[17] سورة البقرة، الآية: 30.

[18] سورة البقرة، الآية: 260.

[19] سورة البقرة، الآية: 258.

[20] سورة البقرة، الآية: 247.